الفصل الثاني
الرثاء

بكى العماد بدموع غزار على الأهل والأصدقاء ،والقادة العظماء ، والرجال النبلاء ، وخصهم بشعر كثير ، بعضه مقطوعات يغلب عليها طابع الارتجال وبعضه الآخر قصائد طويلة تتجلى في أعطاف أبياتها المتأنية واللمحات الدقيقة في إظهار الأوصاف والأشجان والآلام والأحزان .

وينقسم الرثاء عنده إلى قسمين :

(أ) مراثي الأهل والأصدقاء :

تمتليء مراثي العماد من المقربين إلى فؤاده بالأحاسيس الصادقة ، والمشاعر الجياشة ، فحينما توفي صاحبه المعتمد إبراهيم رثاه بأبيات تعبر عن شعور عميق بالحزن والأسى 576هـ :

أرى الحزنَ لا يُجْدِي على مَنْ فقدتُهُ ... ولو كانَ في حزني مزيدٌ لزدتُهُ

تغيرتَ الأحوالُ بعدكَ كُلّها ... فلستُ أرَى الدُّنيا على ما عهدتُهُ

عقدتُ بك الإيمانَ بالنُّجحِ واثقاً ... فَحَلّتْ يدُ الأقدارِ ما قَدْ عقَدتُهُ

وكانَ اعتقادي أنّكَ الدَّهرَ مسعدي ... فخانتني الأيامُ فيما اعتقدتُهُ

اردتُ لكَ العمرَ الطويلَ فلمْ يكنْ ... سوى ما أرادَ اللّهُ لا ما أردتُهُ

فيا وَحْشَةً مِنْ مؤنسٍ قَدْ عدمتُهُ ... ويا وَحْدَةً مِنْ صَاحبٍ قَدْ فقدتُهُ

وداعٍ دعاني باسمهِ ذاكرًا له ... فأطربني ذكرُ اسمهِ فاستعدتُهُ[1]

(1) الديوان ص 97 .

obeikan.com

وغالبا ما ينتقل في مقطوعاته – بعد الإشارة السريعة بمنزلة المتوفي وخسارته فيه – إلى حقيقة الموت والحياة ، مثل قوله في رثاء أسد الدين شيركوه[1] عم صلاح الدين في حوادث سنة 564 هـ :

نُؤمِّـــلُ في دارِ الفَنَـــاءِ بقاءَنـــا ونرجُـو مِـن الـدُّنيا صَـدَاقةً ماقـتِ

ومـا النـاسُ إلاّ كالعُصـونِ يـدُ الـرَّدَى تقـربُ منهـا كُـلَّ عـودٍ لناحـت[2]

فليس لشاعرنا فضل في هذين البيتين سوى تذكير الناس بأن الحياة ظل زائل وأنهم خارجون من الدنيا ، وذائقون الموت مهما طال العمر.

وكان العماد مرهف الحس ، نابض القلب سريع التأثر للنبأ المحزن والخبر المؤلم ، فقد اتصل به خبر وفاة أخيه عثمان ، وهو عائد من الحج 549هـ ، إذ يقول :

سـقى اللّه إنسـاناً لعـيني دفنتُـهُ على رَغْـمِ أنْفـي جَـاعِلاً قَبْـرَهُ قلـبي

فـلا تَحْسَـبُوا أنَّ التُّـرابَ ضَـريحُهُ فمنزلُـهُ بـينَ التَّرَائـبِ لا الـتُرْبِ[3]

(ب) مراثي القادة العظماء :

رثى العماد نور الدين محمود الملك المجاهد الذي حارب الصليبيين بلا هوادة ، وينظم في رثائه عدة مقطوعات ، وقصيدة واحدة مطلعها[4] :

الـــدِّينُ في ظُلَـــمٍ لغيبـــةِ نُـــورِهِ والـــدَّهرُ في غـــمٍّ لفقـــدِ أمـــيرِهِ

ولم يعبر العماد عن لوعة قلبه وحرقته فقط لرحيل البطل المغوار ، بل عبر عن حزن الأمة جميعًا وأسفها على حامي البلاد ، ويتساءل عن شؤون المسلمين ومصيرهم بعد غياب راعيهم وبانى مجدهم :

---

(1) عم صلاح الدين الأيوبي توفي بالقاهرة 564هـ. انظر: وفيات الأعيان 2 / 479 .
(2) الديوان ص 93 وانظر : الديوان ص 160 ، 298 ، 299 .
(3) الديوان ص 82 .
(4) الديوان ص 212 .

obeikan.com

مَــنْ للمســاجدِ والمــدارسِ بانيــًا ... للّه طوعًــا عَــنْ حَلــوصِ ضَمِــيرِهِ
مَــنْ ينصــرُ الإســلامُ في غزواتــهِ ... فلقَــدْ أُصــيبَ بركنــهِ وظهــيرِهِ
مَــنْ للفــرنجِ مَــنْ لأسـرِ ملوكهــا ... مَــنْ للهُــدى يبغــي فكــاكَ أســيرِهِ
مَــنْ للخُطــوبِ مُــذلِّلاً لجماحهــا ... مَــنْ للزَّمــانِ مُسَهِّــلاً لوعــورِهِ
مَــنْ للكــريمِ ومَــنْ لــنعشِ عِثــارِهِ ... مَــنْ لليتــيمِ ومَــنْ لجــبرِ كسـيرِهِ[1]

وكانت أمنية نور الدين في الحياة ، هي استرداد القدس من أيدي الطغاة الصليبيين الذين دنسوا الأرض العربية بأقدامهم ، ولهذا مضى نور الدين يجاهد من أجل تحرير القدس ، ويمني النفس بإعادتها في أبهى صورة ، حتى إنه – تشوقا لهذا اليوم الموعود – صنع منبرًا ثميناً ليوضع يوم الفتح في مسجدها الأقصى ، ولكن الموت أدركه دون نيل مناه في انتزاع هذه المدينة من أيدي المعتدين .

قال العماد في ذلك :

أو مــا وعــدتَ القــدسَ أنــكَ منجــزٌ ... ميعــــادَهُ في فتحــــهِ وظهــــورِهِ
فمتــى تجيرُ القدسَ مِنْ دَنَسِ العدَا ... وتقــدسُ الــرَّحمنِ في تطهــيرِهِ[2]

ويطيل شاعرنا في الدعاء والمغفرة لفقيده ، ويطلب من بارئه أن يجزيه عن الرعية خير الجزاء ، وأن يدخله الفردوس مع عباده الصالحين :

يــا حَــاملينَ ســريرَهُ مَهْــلاً فمِــنْ ... عَجَــبٍ نهوضــكُمْ بِحَمْــلِ ثَــبيرِهِ[3]
يــا عَــابرينَ بنعشــهِ أنشــقتُمُ ... مِــنْ صَــالحِ الأعمــالِ نَشْــرَ عَــبيرِهِ
نَزَلــتْ ملائكــةُ السَّــماءِ لدفنــهِ ... مُسْــتَجْمَعِينَ علــى شَــفيرِ حَفِــيرِهِ[4]

(1) الديوان ص 213 .
(2) الديوان ص 215 .
(3) ثبير : جبل معروف عند مكة .
(4) الديوان ص 215 .

وقوله في رثاء نور الدين محمود 569 هـ :

عجبتُ مِنْ الموتِ كيفَ اهتدَى إلى مَلكٍ في سَجَايا مَلَكْ
وكيفَ ثَوَى الفَلَكُ المستديـ ـرُ في الأرْضِ، والأرْضُ وسطَ الفَلَكْ[1]

حمل صلاح الدين العبء بعد نور الدين ، ونذر نفسه لتحقيق ما تمناه ، وجالد سنين طويلة حتى تم ما أراد ، ونال حب المسلمين ورضاهم ، ولما نزل به قضاء الله رثاه عدد كبير من الشعراء ، وكانت حقبة العماد منها قصيدة بلغت مائتين واثنين وثلاثين بيتًا ، ولعلها أطول قصائد الرثاء في الشعر العربي كله ، وصل إلينا منها سبعة وستون بيتًا[2] ، مطلعها[3] :

شملُ الهدى والملكُ عمَّ شتاتُهُ والدَّهرُ ساءَ وأقلعتْ حسناتُهُ

ويتحدث العماد في تأبينه لصلاح الدين عن فضائله عند الرعية ، إذ يعرض لحكمه القائم على العدل والمساواة ، ودفع الأذى عن المسلمين ، ورفع الحيف عن المظلومين ، ومساعدة الضعفاء والمحتاجين . ويتناول سيرته الحسنة التي سارت بذكرها الركبان ، ويبين مواقفه المشهورة في مبارزة الفرسان ، ومحاربة الأعداء .

وأدرك الشاعر أن عمود الأسرة الأيوبية المتين قد انهدّ ، ومن الصعوبة أن ينصب آخر مكانه يحمل أمانة الحكم ويحقق للأمة الآمال والطموحات الكبرى التي عقد صلاح الدين العزم على إدراكها :

أينَ الذي ما زالَ سُلطاناً لنا يُرْجَى نَدَاهُ وتُتقَى سَطَوَاتُهُ؟
أينَ الذي شَرُفَ الزَّمَانُ بفَضْلهِ وسَمَتْ على الفُضَلاءِ تَشْرِيفاتُهُ؟
أينَ الذي عَنَتْ الفرنجُ لبأسهِ ذلاً ومنها أدرَكَتْ ثارَاتُهُ؟[4]

---

(1) الديوان ص 320 ، 321 .
(2) الروضتين : 2 / 215 ، لأبي شامة المقدسي ، ط وادي النيل ، القاهرة 1287هـ .
(3) الديوان ص 86-88 .
(4) الديوان ص 87 .

صـور العمـاد – بعـد أن أرسـل الرحمـة والمغفـرة والرضـوان لـه – الآلام التي أصابت الأماكن المقدسة ، وحالة البكاء التي انتابت الخيول والسيوف التي عز عليها فراقه :

فعلى صَلاحِ الدِّينِ يُوسُفَ دائماً ... رضوانُ ربِّ العَرشِ بلْ صَلوَاتُهُ

لضريحهِ سُقيا السَّحابُ فإنْ يَغِبْ ... تحضَرْ لرحمةِ ربِّهِ سَقْيانُهُ

وكعادةِ البيتِ المقدَّسِ يَحزنُ الـ ... ـبيتُ الحرامُ عليهِ بَلْ عَرَفاتُهُ

مَنْ للثغورِ وقَدْ عَدَاها حفظُهُ ... مَنْ للجِهادِ ولَمْ تَعُدْ عَادَاتُهُ؟

بَكَت الصَّوارمُ والصَّواهلُ إذْ حَلَتْ ... مِنْ سَلِّها وركوبها غَزَوَاتُهُ[1]

ويسترسل في إبراز لمحات مشرفة من خطواته البناءة التي شاهدها من كثب في أثناء مرافقته له ، ويطلب منه أبنائه البررة أن يقتدوا بها ، ويسيروا على هديها لكيلا ينفرط عقد نظامها :

أبني صلاحُ الدِّينِ إنَّ أباكُمْ ... ما زَالَ يأبى ما الكرامَ أُباتُهُ

لا تقتدوا الاّ بسُنّةِ فَضْلِهِ ... لتطيبَ في مَهْدِ النَّعيمِ سناتُهُ

وردوا موارِدَ عَدْلِهِ وسَمَاحِهِ ... لتردَّ عَنْ نهجِ الشَّماتِ شماتُهُ[2]

إن القصيدة جيدة في نوعها ، فهي تحكي – في معرض الحزن والأسى – قصة بطل عاش حياته كلها في نضال وكفاح من أجل إحقاق الحق وإزهاق الباطل ، وإسعاد البشرية في ظل الرخاء والامان .

(1) الديوان ص 89 .
(2) الديوان ص 92 .

وقوله في رثاء القاضي محي الدين أبي حامد محمد الشهرزوري[1] :

لو كانَ مِنْ شكوى الصَّبابةِ مشكياً ... لعَدَا على عَدْوَى الصّبابةِ مُعْدِيا

ماتَ الرَّجاءُ فإنْ أردتَ حياتهُ ... ونشورَهُ فارجُ الإمامَ المحييا

أقضى القُضَاةِ محمدُ بن محمدٍ ... مَنْ لستُ منه للفَضَائلِ مُحْصِيا

قاضٍ بهِ قَضَتْ المظالمُ نَحْبَها ... وغَدَا على آثارِهِنَّ مُعَفِيَا

يا كاشفاً للحقِّ في أيامهِ ... غُرَراً يدومُ لها الزَّمانُ مُعَطِّيَا

لم تنعشْ الشَّهباءُ عندَ عثارها ... لو لم تجدكَ لطردِ حلمكَ مرسيا[2]

ثم تبكي عليه حلب وتحزن عليه حزنًا شديدًا عندما تلقت الخبر المفجع ، حيث يشبه في عدله عدل نور الدين محمود ، فأصبح بعد الغم عدلا وبعد الحزن بهجة ، وكان يدبر شؤون البلاد ، ويجمع شتاتها ، ويصلح أمورها ، فبفضله عاد الشرع والعدل والحق ، وعفى عنه الدهر ، كما في قوله :

حلبٌ لها حلبُ المدَّامعِ سيلٌ ... أنْ لاقتْ الخطبَ الفَظيعَ المبكيا

وبعدلِ نُورِ الدِّينِ عاودَ أفقها ... مِنْ بعدِ غيمِ العَمِّ جَواً مُصَحيا

أضْحَى لبهجتها مُعِيداً بعدما ... دَهَبَتْ وللمعروفِ فيها مُبْدِيا

لأُمورِها متدبرًا لشتاتها ... متألفاً لصَلاحِها مُتَوَلِّيا

فالشَّرعُ عادَ بعَدْلهِ مُسْتَظْهِراً ... والحقُّ عَادَ بظِلِّهِ مُسْتَدْرِيَا

---

(1) محي الدين أبو حامد محمد بن كمال الدين أبي الفضل محمد بن عبد الله بن القاسم الشهرزوري ، ولي قضاء دمشق نيابة عن والده ، ثم ولي قضاء حلب ، ثم انتقل إلى الموصل وولي قضاءها ودرس بمدرسة أبيه وبالمدرسة النظامية ، وتوفي بالموصل 586هـ وله اثنتان وستون سنة . انظر : الخريدة قسم الشام 2 / 329 ، وفيات الأعيان 4 / 246 .

(2) الديوان ص 456 .

والـــدَّهرُ لادَ بِعَفْـــوِهِ مُسْـــتَعْفِرَاً ... ممـــا جَنَـــاهُ مُطْرَقـــاً مُسْـــتَحْيِيا[1]

وقوله في رثاء العاضد الفاطمي[2] :

تُـــوفِيَّ العاضـــدُ الـــدَّعيُّ فمَـــا ... يفـــتحُ ذو بدعـــةٍ بمصـــرَ فمَـــا

وعَصْـــرُ فرعونهـــا انْقَضَـــى وغَـــدَا ... يُوسُـــفُها في الأمـــورِ مُحْتَكِمَـــا

وانْطَفَـــأتْ جمـــرةُ الغـــواةِ وقَـــدْ ... بـــاحَ مـــن الشِّـــركِ كُـــلِّ مـــا اضْـــطَرَمَا

وصَـــارَ شَـــملُ الصّـــلاحِ مُلتئمـــاً ... بهـــا وعِقـــدُ السَّـــدَادِ مُنْتَظِمَـــا

لمـــا غَـــدَا مُعْلنـــاً شِـــعَارُ بـــني الـــ ... ـــعباسِ حقـــاً والباطـــلُ اكتتمَـــا

وبـــاتَ دَاعـــيُّ التوحيـــدِ مُنْتَصِـــرَاً ... ومِـــنْ دُعـــاةِ الإشـــراكِ مُنتقمَـــا

وظـــلَّ أهـــلُ الضَّـــلالِ في ظلـــلٍ ... داجيـــةٍ مِـــنْ غيابـــةٍ وعَمَـــى

وارتبـــكَ الجـــاهلونَ في ظُلـــمٍ ... لمـــا أضَـــاءَتْ منـــابرُ العُلمَـــا[3]

يبتهج شاعرنا بموت العاضد ، فقد انقضى عهد فرعون ، وأتى عهد سيدنا يوسف الذي فيه العدل والحكمة ، وانطفأت جمرة الأعداء والمضلين ، وأتى الإصلاح والسداد في مختلف الأمور، وكان يدعو إلى التوحيد والانتصار ومحاربة الشرك والمشركين والإنتقام منهم ، حتى ظل أهل الظلم والضلال في غياهب داجية لا يرون شيئا ، وأصبحوا بعد ذلك في حالة ارتباك وظلم لما أضاءت المنابر بالعلماء ، والدولة التى كانت مضطهدة ، أصبحت فى علو ورفعة ، وانتصر الدين ، وابتسمت أوجه الناس بعودة الدين والإيمان ، ومات الشرك رغم أنفه .

---

(1) الديوان ص 457 .
(2) هو عبد الله بن يوسف ، آخر الخلفاء الفاطميين بمصر ، توفي 567هـ . انظر: وفيات الأعيان 3 / 109 .
(3) الديوان ص 376- 377 .

العاطفة في الرثاء تتطلب أن " تستند إلى ناحية تدعمها ، وهي بعض الأفكار والمعاني المتصلة بالحياة ومصيرها ، وحقيقة ما فيها من زخارف ومتاع زائل حيث تخرج الإنسان إلى الميدان الذي يرى فيه نفسه على فطرتها ويدرك الحقائق في وضعها الصحيح ، وعلى قدر ما تغررعاطفة الرثاء بهذا يكون الأدب العاطفي الرثائي قويا خالدا "[1] .

والمتتبع لديوان العماد يجد نفسه أمام شاعر كثير البكاء والحزن على الراحلين من الأصدقاء والأصحاب أو القادة والملوك ، وكثير الترحال والتنقل .

وإليك بعض سمات وخصائص الرثاء في شعره :

(1) اقتران الرثاء أو التعزية بالتهنئة والمدح ، وهذا من أصعب الرثاء ؛ لأنه يتطلب مهارة فنية ، وحسن انتقال من غرض إلى آخر ، كما فعل في تهنئة صلاح الدين بالملك وعزى عمه أسد الدين شيركوه [2].

(2) يكثر من استخدام الأسلوب الاستفهامي الذي يعبر عن مدى الحزن والألم والأسى الذي ينتابه[3] .

(3) يصف دائما المرثي بالفخر والشجاعة والجود ، ويساعد الفقراء والمحتاجين وحماية المسلمين من خطر الأعداء .

(4) يصف المرثي بأنه ملك الدنيا والآخرة ،كما في قوله راثيًا نور الدين :

---

(1) عبد الحميد حسن : الأصول الفنية للأدب ص 87 ، مكتبة الأنجلو المصرية ، 1949م .
(2) انظر الديوان ص 159 – 160 .
(3) الديوان ص 87 ، 212 ، 213 .

obeikan.com

مَلَكـــتَ دنيـــاكَ وحَلّفْتهَـــا وسِـرْتَ حتـى تملـكَ الآخـره[1]

وأنه لبس رضوان المهيمن وسكن في الجنة :

ولبسـتَ رضـوانَ المهيمـنِ سـاحبًا أذيـالَ سُـنْدسِ خـزِّهِ وحريـرِهِ

وسـكنتَ عليَـنَ في فردوسـهِ حلْـفَ المسـرَّةِ ظَافِـرًا بأجـورِهِ[2]

(5) في رثائه يُذكر الناس بالآخرة ، وأن الدنيا زائلة وفانية .

(6) ثمة شيء في رثاء ممدوحيه وهي بكاء الخيول والسيوف على فراق الممدوح ، كما في قوله :

بَكَـت الصَّـوَارِمُ والصَّـوَاهلُ إذْ حَلّـتْ مِـنْ سَـلِّهَا وركوبهـا غزواتُـهُ

وبسـيفهِ صَـدَأ لحـزنِ مُصَـابهِ إذْ لـيسَ يُشْـفى بعـدَهُ صَدِيائُـهُ

يـا وحشـتا للبـيضِ في أغمادِهـا لا تنتضـيها للوغـى عَزَمَاتُـهُ[3]

(7) توحي مقدمة المرثية بمضمون وموضوع القصيدة فمن بدايتها نجد أنفسنا في موقف رثاء وبكاء .

(8) كان صادقًا ومخلصًا في رثاء أصدقائه والملوك والقادة ، فيفرح لفرحهم ، ويحزن لحزنهم .

---

(1) الديوان ص 209 .
(2) الديوان ص 216 .
(3) الديوان ص 89 .

obeikan.com